

الخروج من النهج الاخباري* في كتابة التاريخ القديم

د. ابراهيم بيضون

صدر في مطلع شهر حزيران ، كتاب ابرز خواصه ، انه سند فراغا في المكتبة التاريخية التي تكاد تفتقد الى هذا النوع من الكتب . ويتناول هذا الكتاب موضوعا حضاريا على جانب من الاهمية ، وربما من التعقيد . ف « تاريخ العرب في العصور القديمة » قد لا يهم مباشرة بعض العاملين في الدراسات التراثية على اختلافها، ولكن القارئ المتخصص لا بد ان يرى فيه عملا غير عادي ، ومحاولة جادة لقراءة التاريخ العربي القديم ، قراءة موضوعية لا تخضع لمقاييس الاخباريين ، ولا تتأثر بسداجة رواياتهم ذات الملامح الاسطورية والفامضة . اما الكاتب، فهو الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى ، استاذ تاريخ الحضارة ورئيس قسم التاريخ حاليا في جامعة بيروت العربية . ولقد جاءت شخصيته العلمية متوائمة مع جديده المضمون في الكتاب ، ومنسجمة مع الجهد الدؤوب الظاهر بين صفحاته . وفوق ذلك ، فهو متنوع المواهب ، متعدد الطاقات .. وجميعها تجاذب بين قديم التاريخ وحديث الشعر . والمسافة بينهما تبتعد او تقترب طوعا واختيارا .. الا ان حضارة اليونان تبقى المحور الدائم، والوعاء الذي يستوعب جميع الاتجاهات ، بما فيها الشعر . وثقافة الكاتب الاغريقية كانت بدون ريب ، احد العوامل المؤثرة لاستشفاف الملامح الحضارية لتاريخ شبه الجزيرة ومواطن الاستقرار فيها . وذلك عبر مصادر الكلاسيكيين من كتاب العصور اليونانية والرومانية والمتأفرقة ... حيث ان قاسما مشتركا جمع بين هؤلاء ، اعني به اللغة اليونانية كأداة تداولتها النخبة المثقفة في ذلك الزمن .

والحقيقة ان الكاتب ، في مقدمته المختصرة ، لا يدع مجالا للتساؤل عن غاية الكتاب والهدف من اصداره ، في ان يكون مدخلا حضاريا لتاريخ تلك المرحلة المهمة السابقة على العصر الاسلامي، وليس عرضا مسهيا لاحداثها المتواترة . ثم يضيف بشيء من التحديد الى ان الاطار الحضاري الذي نحتة هذه الدراسة ، يسير عبر خطين يتلازم احدهما مع الاخر : موقع شبه الجزيرة العربية من المسار الحضاري في العالم القديم اولا ، والخروج « الى دائرة الاعتماد على المصادر الجادة الوحيدة » ، ومن ثم المعاصرة لهذا التاريخ ثانيا .

مراجعة وتحليل لكتاب « العرب في العصور القديمة - مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور لطفي عبد الوهاب .

ولا ريب ان كلا الخطين على جانب من الاهمية كبير ، ذلك ان الموقع الحضاري لهذه المنطقة، استأثر ولا يزال بنصيبه الوافر من جهود الرواد من المستشرقين والباحثين ، امثال توماس أرنو (١) Thomas Arnaud وجوزيف هاليفي Joseph Halévy الذي اكتشف خرائب (قراو) العاصمة المينية . وكذلك ادوارد جلازر Edward Glaser الذي قام بعدة رحلات الى اليمن ، كانت لها مساهمتها العظيمة في بلورة الشخصية الحضارية لتلك المنطقة المعروفة منذ القدم ببلاد العرب السعيدة . ولقد فتحت كشوفات (جلازر) الطريق امام مزيد من الدراسات، الكاشفة لاجواء الصراع والحدي ، التي رافقت نمو هذه الكيانات السياسية وتطورها ، ومن ثم ضعفها وانهارها تحت ضغط التدخل الخارجي، عسكريا وعقائديا . ولا يمكن ايضا ان نستثني في هذا المجال ، جهود الباحثين العرب التي بدأت تأخذ مسارها الجدي منذ الثلاثينات من هذا القرن . وكان في طليعة المهتمين منهم بالدراسات الحضارية في جنوب شبه الجزيرة، الجغرافيون والاثريون : سليمان حزين (٢) الذي بحث في الخطوط التجارية واثار التغيرات المناخية في الهجرة من الجنوب الى الشمال . ومحمد توفيق (٣) الذي اكتشف مجموعة من النقوش في منطقة (الجوف) . واخيرا احمد فخري (٤) الذي تجاوز في اكتشافاته ما وصل اليه العالم الفرنسي (هاليفي) . والابحاث التي توصل اليها الدكتور فخري كانت في غاية الاهمية ، سواء من حيث النقوش الجديدة التي عثر عليها ، ام من حيث المعلومات الاضافية المفصلة التي تضمنتها دراساته المديدة عن هذه المنطقة .

بعد هذا العرض السريع لجهود ابرز العلماء من الاوروبيين والعرب ، الذين اسهموا بكشف اللثام عن حضارة عريقة ومشرقة ، لا بد من التاكيد بان دور هؤلاء الباحثين ، كان مدخلا هاما الى تحديد الاطر العامة لهذه الحضارة . اكثر منه توغلا في تفاصيل الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لعالم شبه الجزيرة ، الذي لا يزال الارض الخصبة لوافر من البحوث والدراسات .

ولعل الدكتور لطفي عبد الوهاب ، في كتابه الحضاري عن تاريخ العرب القديم قد تجاوب بنوع من الجراءة في اقتحام هذا الموضوع الشائك . فيأتي عمله محاولة مثمرة ، ربما الاولى في السنوات الاخيرة لتطرح اسئلة صعبة ، ويتم الجواب عليها بهذه الدقة العلمية المفصلة . وقبل ان انطرق الى بعض هذه الاسئلة ، لا بد لي من تقديم فكرة وجيزة عن الموضوعات التي يتضمنها الكتاب . وهي موزعة على ثلاثة اقسام رئيسية :

● الاول ، تحت عنوان : المنطقة والشعب والارض .

وهو بدوره موزع بين ثلاثة فصول او ابواب - كما يحددها الكاتب - وتتناول بصورة عامة، تحديد البعد الجغرافي والحضاري لشبه الجزيرة العربية ، ومن ثم مقارنتها بمناطق نشوء الحضارات الاخرى ، حتى ظهور الاسلام . كذلك تشتمل على دراسة مقارنة حول قضية الشعوب السامية ، والملاحظات البدئية عن اصول الساميين ومواطنهم ، تبعا لافتراضات علماء الاجناس . وينتهي هذا القسم الى تحديد الملامح العامة لشبه الجزيرة ، من حيث الموقع والسطح والتضاريس ، فضلا عن المناخ واثره على الانسان والحيوان والنبات .

● **الثاني** ، وهو الاكثر اهمية ، حيث يشتمل على المصادر الوثائقية والدينية والادبية ، وكذلك المصادر الكلاسيكية التي اعتمد عليها الكاتب بشكل اساسي . وسنحاول القاء الضوء على هذه المصادر ومدى التزام البحث بالجانب الموضوعي منها .

● **الثالث والآخر** ، وهو يهتم بتكوين المجتمع في بلاد العرب قبل الاسلام ، والعوامل الاقتصادية المؤثرة في طبيعة هذا المجتمع ، ثم يبحث في الاوضاع الداخلية بما فيها من تنظيم سياسي وتطوير للمقائد الدينية ومدى انتشارها . واخيرا ، تبلور الهوية العربية لشبه الجزيرة وعلاقاتها الخارجية مع القوى السياسية المعاصرة .

هذه باختصار اهم النقاط التي عالجها الكاتب بشيء من الاسهاب في كتابه « تاريخ العرب في العصور القديمة » . وبقدر ما استوقفتني هذه النقاط ، حيث ان جلها على جانب من الموضوعية والجدة ، فان المجال لا يتسع حتمالاحاطة بها كاملة ، وهي تخفي وراءها قيما تاريخية ذات شان . ذلك ان ما جذبني في الكتاب هو موضوعان : احدهما يتعلق بالمشكلة السامية ، وهي موضع جلد مزمّن ومستمر . وثانيهما يرتبط بالمصادر ، التي افرد لها الكاتب احد الاقسام الرئيسية الثلاثة في كتابه .

اما المسألة الاولى ، فقد دخل اليها بأسلوب جريء ولكن غير مباشر . وهو بعد عرض لمجموعة من النظريات ، يخلص الى تأكيد الفكرة القائلة ، بأن شبه الجزيرة العربية كانت المنبع الذي انفجرت منه الهجرات السامية المتعاقبة ، كنتيجة حتمية للانقلاب الجيولوجي الذي اجتاحت تدريجيا هذه المنطقة . وادى الى تلاشي الموارد ونضوب الماء ، ومن ثم الى اختلال الانظمة السياسية والاقتصادية .

ولقد اعتمد الكاتب في ترجيح صحة النظرية هذه ، على وثائق مادية ، ترجع الى القرن الثالث ق. م. وهي شاهدة على ذلك التحول المناخي الذي اصاب القسم الجنوبي لشبه الجزيرة ، وما جر اليه من اضطراب في المراكز السياسية تحت ضغط التدخل الخارجي والتمرد القبلي . فبدت وسائل الحكم عاجزة عن ايقاف التدهور ، وفشلت في ترميم نظمها الزراعية خاصة اساليب الري المتطورة ، التي اشتهرت بها دول اليمن المتعاقبة . ويتحاشى الكاتب هنا الخطأ التاريخي الشائع ، وهو ان السد المشهور الذي عرف (بسد مأرب) والذي اقترن بأكثر من اسطورة قديمة . لم يكن كما صنّور ذلك الشريان الرئيسي والحيوي للاقتصاد اليمني ، وللحضارة الجنوبية ان صح التعبير . فهذا السد، كان جزءا من نظام زراعي متطور فرضته العوامل الجغرافية والجيولوجية الملازمة ، في وقت كانت اليمن فيه تقترب بالخصوبة وتخزن ارضها الماء بكميات هائلة . اما تصدع السد او انهياره ، فلم يكن غير نتيجة حتمية من نتائج التحول المناخي ، واستطرادا السياسي في جنوب شبه الجزيرة وليس العكس، كما هو شائع لدى عدد من الكتاب التقليديين . والكاتب هنا يدعم هذه الفكرة بقوله : « وواضح ان تصدع جدران السد هو نتيجة مباشرة لاهمال الحكومة القائمة في ذلك الوقت للمنشآت الحيوية في البلاد ، وسد مأرب هو من ابرز هذه المنشآت » (٥) .

غير ان الكاتب ، اذا استطاع حسم قضية الاضطرابات الجيولوجية وانعكاساتها على مواطن الاستقرار في شبه الجزيرة ، فهو لا يملك المعطيات الكافية حتى الان للبت في مسألة الهجرة والطريقة التي تمت بها ، وذلك لقلة الشواهد التاريخية القاطعة . ويبقى مجرد الافتراض ، شأن السابقين من العلماء ، بأن هذه المنطقة لم تكن بعيدة عن هجرات مكثفة ، غادرتها تحت ضغط الجوع والجفاف ، ثم توزعت عبر عدة اتجاهات، خاصة وادي الرافدين والصحراء السورية . والجديد المضاف لدى الكاتب ، هو ان الامتداد السامي ، اخترق الحاجز المائي الفاصل بين شبه الجزيرة والساحل الحبشي . اذ ان هذا الاخير شهد تسلا للعناصر السامية عبر الجزر المتناثرة امام المدخل الجنوبي للبحر الاحمر ، فكانت هذه وسيلة اتصال بين الضفتين . وتجد هذه الفكرة تسويقها الجغرافي ، بأن المنطقة كانت خضراء ، عامرة بالسكان حتى الالف الاخير ق.م. (٦) كما تجد تسويقها اللغوي من خلال اللهجات المتقاربة ذات الاصل الواحد ، المنتشرة على طرفي البحر الاحمر .

والمسألة الحيوية الثانية، التي تستقطب الاهتمام في هذا الكتاب ، تتمثل في قيمة المصادر التي اعتمدها الدكتور عبد الوهاب وافرد لها محلا خاصا - كما اسلفت . ولا بد من الاعتراف بأن هذه المسألة كانت في مقدمة الاسباب التي جذبت انتباهي الى هذا البحث . ذلك ان معظم الكتب العربية التي صدرت في هذا الاتجاه ، لا زالت اسيرة ذهنية تقليدية ، دون الاعتماد على النهج الوثائقي والمقارنات التاريخية . ونستطيع ان نستثني ربما من الكتاب الاقدمين ، (ابن الكلبي) في كتابه الاصنام . وهو يتناول تفصيليا الحياة الدينية للعرب قبل الاسلام بشيء من التخصص والموضوعية . فاذا انتقلنا الى بقية المصادر ، نجد انها تنحو بعيدا عن الدقة العلمية، ويطنى عليها خيال الروائي ، وليس واقعية المؤرخ . ولا يستثنى من ذلك (الطبري) بكتابه الرائد في التاريخ الاسلامي العام ، حيث كانت رواياته عن العصر القديم لا تبتعد عن الخرافة (٧)، بخلاف الموضوعية - مقارنة مع العصر الذي عاش فيه - التي امتازت بها رواياته الاسلامية . وما ينطبق على الطبري يصيب بقية المؤرخين الذين تأثروا غالبا بنهجه التاريخي عبر درجات متفاوتة. ولعل ابن خلدون ، كان اكثرهم حذرا ، فتجنب الوقوع في دوامة النسايب ، معبرا عن شكه بصحة الاخبار العائدة الى عصور العرب السحيقة . بيد انه لا يرفضها نهائيا ، اذ يلجأ احيانا الى الالتزام بما يتعارض ومذهبه النقدي ، حين يرجع بالعرب الى جذرين رئيسيين: احدهما يتصل بعدنان والاخر بقططان (٨) .

ولا يبدو في الغالب، ان المؤرخين الحديثين خرجوا من هذه الدائرة بشكل جدي . فمعظمهم لا زال يتبع ذهنية مؤرخي العصور الوسطى . ولعل اقرب المعاصرين الى الروح العلمية والنهج الموضوعي ، الدكتور جواد علي في موسوعته المعروفة : بالمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . على الرغم من ان هذا الاخير ، كانت تخونه احيانا العودة الى ذات المصدر المأخوذ عنه . ولا بد ان يكون العائق في ذلك لغويا محضا ، لان الدقة والموضوعية صفتان متلازمتان في هذا الكتاب القيم والشامل .

واذا رجعنا الى تاريخ « العرب في العصور القديمة » موضوع دراستنا ، نجد خارج هذه الاطر كاملا من حيث استعمال المصادر على اختلافها . . ولعلها السمة الاكثر بريقا في هذا الكتاب ، والاكثر جذبا لاهتمام القارئ المتخصص . ولقد حشد الكاتب في هذا السبيل عددا غير قليل من المصادر الكتابية القديمة ، بعضه معاصر لتلك المرحلة ، وبعضه الاخر لا يرقى الى اكثر من العصر البيزنطي . هذا فضلا عن النقوش والاثار وبقية المواد الوثائقية ، وتقارير العلماء ونظرياتهم الحديثة . وهي تندرج جميعها كالتالي :

١ - الآثار والنقوش :

وهي مصنفة - كما اعتمد عليها الكاتب - الى عدة اشكال ، من الآثار المعمارية كبقايا المنازل وللقصور والمعابد والاضرحة والحصون والسدود والبوابات والاسوار والمسلات ، وكذلك التماثيل على خلافها ، كاملة او نصفية او بعض الدمى الصغيرة ، فضلا عن المنحوتات الصخرية المعروفة (بالمخريشات) والادوات المنزلية والمستعملة للزينة والمسكوكات المتداولة في الحياة التجارية ، الى آخر ذلك من ثوابت مادية يمكن استخدامها في استجلاء الحقائق التاريخية عن ذلك العصر (١) . والكاتب هنا تتبع بدأب وصبر شديدين ، مجهودات العلماء الاثريين والرحالة في شبه الجزيرة العربية ، التي بدأت منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر . كما ناقش تفصيليا تقاريرهم واورد امثلة ومقارنات عن عدد من المواقع الاثرية ، لا سيما المعبد الكبير المعروف « بالعوام » ، الواقع على مسافة اربعة كيلومترات الى الجنوب من (صرواح) عاصمة العيينيين .

ولعل القيمة التاريخية التي يمكن التماسها من خلال الدراسات المقارنة لهذا المعبد ، تتمثل مبدئيا في وحدة الانسجام في العبادات اليمينية حيث ظهر في فئاته تماثل من المرمر لرأس ثور ، وهو الرمز الشائع لاله القمر (المله) في اليمن (١٠) . كما يستدل من ظاهرة الفخامة في البناء ، ان اليمينيين بصورة عامة ، كانوا شعبا يميل الى التدين . وهو ما اكده في الماضي المؤرخ الروماني (بلينيوس) *Pilinius* الذي ترك معلومات قيمة عن الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ، تعود الى اواسط القرن الاول الميلادي . ويتابع الكاتب مقارناته الحضارية عبر الدلالات التي المحنها اليها ، ليصل الى النمط الحياتي العام للمجتمع اليميني ونظامه الداخلي وعلاقاته الخارجية واللفة المتداولة فيه ، وكذلك العبادات والقوانين . وكانت النقوش ، الاداة الاكثر افادة لمعرفة المزيد عن طبيعة هذا المجتمع ، حيث يورد الكاتب ما يقارب اربعة آلاف نقش ، تم العثور عليها حتى الان في اليمن ، وهي تحمل معلومات على جانب كبير من القيمة التاريخية (١١) .

ولكن الدكتور عبد الوهاب ، رغم ثقته بهذه النقوش كمادة تخدم الحقيقة العلمية ، بشكل اكثر دقة من النصوص الاخرى لا سيما الواردة ضمن كتابات تاريخية . الا انه باخذ عليها في الوقت نفسه ، عدم الشمولية والعجز عن اعطاء تفسير كامل للحدث التاريخي . كما انه يشكك ببعض منها ، لا سيما العائدة الى الاهتمام بأخبار الملوك وانتصاراتهم ، حيث تميل بطبيعتها في كل زمان الى المبالغة ، في وقت غلب عليه الحكم الفردي المطلق .

٢ - المصادر الدينية :

تنقسم هذه المصادر برأي الكاتب الى قسمين . الاول ديني بحث ، ويتناول القرآن والتوراة ، وما يتصل بهما من (الحديث) الذي « يضم مجموعة التعليمات والتعليقات التي نطق بها الرسول » (١٢) ، ثم (التلمود) الذي يمثل « مجموعة الاحكام والشروح والروايات المتصلة بالتوراة » (١٣) . اما الثاني فهو عبارة عن المصادر المدونة التي تركها الاقدمون من كتاب التاريخ والجغرافية والرحلات وغيرهم .

وفي مجال التعرض لهذه المصادر الدينية ، سأحاول الاكتفاء بمناقشة المدى الذي يتيح استعمال كتاب الهي كالقرآن ، كأحد المصادر التاريخية . خاصة وان جل كتّاب التاريخ الاسلامي يفتتحون به دائماً لوائح هذه المصادر في مؤلفاتهم . ذلك انني أرى مع الكاتب ، ان القرآن « رغم ما يرويه من احداث ومواقف تاريخية ، لا يهدف في المقام الاول الى تسجيل تاريخ المجتمعات القديمة في حد ذاتها ، وانما يستهدف ارساء القيم الروحية التي تربط الانسان بالله وبالقيم الاجتماعية التي تنظم علاقة الانسان بالمجتمع » (١٤) . ثم يضيف الكاتب ، محاولاً تفسير الاحداث والمواقف التاريخية الواردة في القرآن بأنها حسب رأيه « لا تعدو ان تكون امثلة هدفها الحقيقي ، هو اظهار العبرة المستفادة من تاريخ هذه المجتمعات - وهكذا جاءت بعض الاثرات التاريخية في القرآن مقتضبة او عابرة ، او جاء تصويرها بشكل يمتزج فيه تسجيل الحدث او الموقف بالفرض الوجداني له » (١٥) .

والكاتب يدعم رأيه بعدد من الشواهد الواردة في القرآن (كعاد وثمود) و (السيل العرم) و (ملكة سبأ) . وهذه الاخيرة ربما تحمل اكثر من غيرها ذلك البعد المنسجم مع طرح الكاتب في هذا الشأن . فالزيارة الغامضة التي قامت بها ملكة سبأ الى سليمان في فلسطين والتي يشير اليها القرآن في سورة النمل (١٦) ، يمكن ألا تكون ملكة اليمن . وربما كانت سبأ اسماً لاحدى القبائل او الجماعات المستوطنة الى الجنوب من فلسطين ، او مدينة بهذا الاسم في الشمال الغربي لشبه الجزيرة كانت « احدى المستوطنات التي اقامها السبئيون على خط القوافل من اليمن الى سورية » ، كما جاء في الكتاب موضوع دراستنا (١٧) . وتعود سبأ الى الظهور مرة اخرى في سورة تحمل نفس الاسم (سورة سبأ) (١٨) ، حيث يبدو من خلال المقارنة مع المصادر الكلاسيكية انها تتطابق مع سبأ اليمن . ولكن الكاتب لا يشير الى السورة الاخيرة مباشرة ، ويميل الى ترجيح الزيارة التي تمت في اعقاب توتر العلاقات بين الملك والملكة ، خاصة وان سليمان - حسب رأي الكاتب - كان يطمح الى مد نفوذه التجاري الى سواحل البحر الاحمر ، مما أدى الى مضاربة المصالح السبئية .

والحقيقة ان المؤشرات المحيطة بهذه الحادثة ربما لا توحى بواقعية هذه الزيارة التي لم يكن ما يسوتغها ، بالمقارنة مع دائرة النفوذ الضيقة التي شملتها سيادة الملك العبراني في ذلك الوقت، والتي لم تتجاوز ابعد من حدود فلسطين الاقليمية . وتجدر الإشارة الى ان هذا الأخير

الذي ورد ذكره في الكتاب كملك (يهوذا) (١٩) ، لم تحمل دولته هذا الاسم ، حيث عرفت حتى موته بالملكة العبرانية . لان انقسامها الى (يهوذا) في الجنوب و (اسرائيل) في الشمال جرى في عهد ابنه (رحبعام) . وكانت الدولتان من الضعف والتنازع ، بحيث اقتصرتا على جزء من فلسطين فقط (٢٠) .

٣ - المصادر الكتابية :

في طليعة المصادر التي اعتمدها الكاتب في دراسته الحضارية لهذه الفترة، كتابات المؤرخين الكلاسيكيين . بدءا بشاعر الاغريق (هوميروس) Homeros الذي المح باشارات عابرة في (الاوديسيه) الى احوال شبه الجزيرة العربية، وكذلك في اشعار (هزiodوس) Hesiodos ، وفي مسرحيات (ايسخيلوس) Aeschylus ، وهي تعود الى القرن الخامس ق. م. ومن الواضح ان هذه الاشارات التي تركها شعراء الاغريق الاوائل - وهم خارج دائرة الاهتمام حكما بتاريخ هذه المنطقة - كانت عرضية وغير مباشرة. ولا اعتقد ان مؤشرات كهذه يمكن ان تخدم الحقيقة التاريخية ، او تكشف عنها الغموض ، خاصة وان التراث الادبي اليوناني في ذلك الوقت ، كان لا يزال مطبوعا على الاسطورة بما يتوافق والذهنية العامة للعصر .

ولكن الكتابات اليونانية تصبح بعد حين ، معنية - تحت ضغط التحولات السياسية - بتاريخ هذه المنطقة . ولعل « ابا التاريخ » هيرودوتوس Herodotus كان الرائد في كتاباته التاريخية ، حيث اتخذت لأول مرة صفتها الشمولية والمفصلة . وعلى الرغم من تأثر هذا المؤرخ بأجواء العصر الذي عاش فيه من حيث النزوع الى المبالغة احيانا ، الا ان كتاباته عن شبه الجزيرة العربية ، او Arabia كما اطلق عليها ، كانت متضمنة الكثير من المعلومات الجدية والمفيدة . فهو يتحدث باسهاب عن « موقع البلاد وتربتها وعن عادات العرب وتقاليدهم وعقائدهم الدينية وملابسهم وسلاحهم وطرقهم في الحرب ، كذلك فهو يقدم لنا مقتطفات عن تاريخهم وعلاقاتهم الخارجية مع الاشوريين والفرس ، كما يفيض في الحديث عن منتجات شبه الجزيرة او ما يعتقد انه من منتجاتها » (٢١) . اما الطريقة التي اعتمدها المؤرخ اليوناني لاستقاء معلوماته الدقيقة هذه فيجيب عليها الكاتب : بان قسما منها اعتمد فيه « على الروايات التي سمعها من مصدر او آخر ، سواء من ابناء البلاد او المتصلين بهم » . واعتمد في قسم آخر على « ملاحظته الشخصية في الاماكن التي مر بها في رحلته التي شملت قسما لا بأس به من بلاد الشرق الادنى... وهي اماكن تضم فيما بينها الاطراف الشمالية لشبه الجزيرة » (٢٢) .

ولكن الكاتب يرى ان (هيرودوتوس) لم يعتمد في معلوماته ، على رغم جديتها ، النهج الموسوعي العام ، الذي لا يفسح كثير مجال للقضايا التفصيلية الدقيقة ، الامر الذي ستعرفه المرحلة الثانية من التدوين التاريخي ، أي في اواخر القرن الرابع ق. م (٢٣) . وبأخذ التدوين اتجاها اكثر تخصصا لدى مؤرخي الاغريق مع حملة الاسكندر ، حيث يبرز اسمان : الاول

« بطليموس » Ptolemaios ، وهو مؤرخ عسكري. والثاني ارستوبولوس Aristoboulos ، وهو جغرافي متخصص بطبيعة الأرض . ومعلوم ان الاسكندر ، كتلميذ لارسطو ، لم يدخر وسعا في الاعتماد على العلماء والاختصاصيين اثناء حملته الى الشرق . وفي الاتجاه نفسه ، كان القائد الفرنسي نابليون ، متأثرا ربما بسلفه القائد المقدوني ، حينما اصطحب معه مجموعة من المتخصصين في حملته الى مصر ، في نهاية القرن الثامن عشر . والحقيقة ان كتابات «بطليموس» و « ارستوبولوس » والعالم الجغرافي الاخر « ثيوفراستوس » Theophrastos ، كان لها الاثر العميق في التعرف على كثير من غوامض شبه الجزيرة ، من حيث البيئة والتضاريس والسكان والموارد الاقتصادية وغيرها (٢٤) .

وتعقب هذه المرحلة المبكرة ، حسب تعبير الكاتب ، مرحلة اخرى يسميها بالعصر المتأغرق ، الذي يمتد ما بين امبراطورية الاسكندر وامبراطورية الرومان (٢٥) . ومن ابرز كتاب هذا العصر ، الجغرافي « اراتوستينس » Eratosthenes الذي وضع مسحا جغرافيا واقتصاديا لشبه الجزيرة . وذكر معلومات مفصلة عن بعض الكيانات السياسية التي شهدتها اليمن ، كمعين وسبأ وقتبان .

والمملكة السبئية التي تمتعت بشهرة خاصة في تاريخ العرب القديم ، كان لها النصيب الوافر من اهتمام كاتب متأغرق اخر هو «اجاثار خيديس» Agatharchides ، الذي عاش في الاسكندرية في الثلث الاخير من القرن الثاني ق.م (٢٦) . ولقد ضم كتابه اخبارا مثيرة عن المجتمع السبئي وتurf الارستقراطية ، والشهرة الواسعة التي اكتسبتها هذه الدولة في التجارة . اما طرق القوافل ومحطاتها في غربي شبه الجزيرة ، والنظام السائد في انتقال السلع وحمائتها . فقد توسع في الحديث عنه (ارتميدوروس) Artemidoros (نهاية القرن الثاني ق.م) كما كان لسبأ حظها من اهتمام هذا المؤرخ لا سيما النواحي المتعلقة بنظام الحكم والعلاقات بين قبائل شبه الجزيرة ، لا سيما المجاورة لسواحل البحر الاحمر (٢٧) .

وتأتي بعد ذلك كتابات العصر الروماني ، حيث بقيت للثقافة اليونانية مكانتها الساطعة . فبرز في دائرة المهتمين باخبار هذه المنطقة ، الكاتب الجغرافي « سترابون » Strabon ، الذي تحدث عن نظام الحكم فيها اثناء اهتمامه بتحديد الخطوط التجارية البرية والبحرية ، والتعديل الذي طرأ على مسارها في ايامه . على ان الاثر القيم الذي يرتبط بسترابون ، كما يشير الدكتور لطفي عبد الوهاب ، « وصفه للحملة الرومانية على الجزيرة العربية ، وهي الحملة التي قادها ايليوس جالوس Aelius Gallus ، اول حاكم روماني على مصر » (٢٨) . وهي الحملة الفاشلة التي تحطمت معها آمال الرومان في الوصول الى بلاد البخور في اليمن ،

ويبدو ان الكتابة التاريخية والجغرافية ، قد تحولت في العصر الروماني بصورة اكثر وضوحا ، الى خدمة السياسة العامة للدولة والارتباط بخططها العسكرية . وهذا ما حدث مع المؤرخ الروماني « بلينيوس » Plinius (٢٣-٧٩م) الذي قدم دراسة مفصلة عن شبه

الجزيرة العربية ، اشبه ما تكون بمسح عام لتضاريسها وقبائلها وتاريخها وطرق التجارة فيها ومسافاتها ، فضلا عن منتجاتها ومواردها الاقتصادية بشكل احصائي دقيق (٢٩) .

وينهي الكاتب هذا العصر بالجغرافي المعروف بطليموس Ptolemaius ، وهو غير المؤرخ العسكري الذي رافق الاسكندر في حملته الشهيرة . وهو كذلك من اصل يوناني ، وقد عاش في النصف الاول من القرن الثاني الميلادي . وكان من ابرز ما اهتم به بطليموس ، محاولته الرائدة « لضبط الحدود والتقسيمات والاماكن عن طريق خطوط الطول والعرض » (٣٠) . وهي وان كانت محاولة بدائية وغير متوازنة ، الا انها تعتبر من ادق ما عرف عن جغرافية المنطقة في العالم القديم . كما يعود الى هذا الجغرافي ، التوزيع التضاريسي الشائع في دراسات شبه الجزيرة حتى اليوم تقريبا ، والذي يميز بين ثلاثة اقسام رئيسية فيها (٣١) :

- ١ - بلاد العرب الصحراوية (Deserta) Arabia Erema
- ٢ - بلاد العرب الصخرية او الحجرية (Petrix) Arabia Petraea
- ٣ - بلاد العرب الميمونة (السعيدة) (Felix) Arabia Eudaemon

وهذا التوزيع متقارب بحدود معينة من التقسيمات التي وضعها الجغرافيون العرب فيما بعد كالهمداني وابن حوقل ...

وتبقى اخيرا كتابات المرحلة التأخرة في نطاق المصادر الكلاسيكية غير العربية ، التي اعتمد عليها الكاتب عمليا في استقاء معلوماته المختلفة . وتبدأ هذه المرحلة مع « يوسيبوس » Eusebius ، من مؤرخي القرن الرابع الميلادي . ومعاصره المؤرخ « اميانوس ماركلينوس » Marcellinus . واخيرا المؤرخ المعروف « بروكوبيوس » Prowopios ، الذي ارتبط اسمه بالقائد البيزنطي (بلزاريوس) في القرن السادس الميلادي . ان كتابات هؤلاء التي تناولت تاريخ شبه الجزيرة ، جاءت عرضا وعبر اشارات سريعة وغير مقصودة في الغالب . غير ان ابرزهم قيمة - برأي الكاتب - فيما يختص بتاريخ شبه الجزيرة هو « ماركلينوس » ، حيث ان اهمية معلوماته - رغم عرضيتها - تعود الى معاصرة المؤرخ للاحداث التي ذكرها ، وفي بعض الاحيان رؤيته لها اثناء الحملات العسكرية التي شارك فيها كرجل عسكري ، ومن بينها حملات رومة ضد الامبراطورية الفارسية في الشرق » (٣٢) . ثم يضيف الدكتور عبد الوهاب ، مقوما الاهمية التاريخية للاشارات التي اوردها هذا المؤرخ ، وهي في المقام الاول تهتم « بلامح الشخصية الجماعية لمن يتعرض لوصفهم ، وطريقته الموضوعية في الكتابة » (٣٣) ، حيث يكتب ويسجل ملاحظاته « بدون احكام مسبقة وبدون انفعال » حسب تعبير المؤرخ البريطاني « جيبون » Gibbon (٣٤) .

لقد كانت المصادر الكلاسيكية ، لا سيما كتابات العصور اليونانية والتأخرية والرومانية ، الشريان الرئيسي لهذا البحث ، اذ وجد فيها الكاتب سبيله شبه الوحيد لتقصي الحقيقة التاريخية . اما الكتابات العربية القديمة ، فكاد يتجاهلها ، ان لم نقل يرفضها ، لان الاعتماد عليها

يصطدم بصعوبة كبيرة . ويجد تسويفه المنطقي لهذا الموقف في « عدم معاصرة اصحاب هذه الكتابات لما كانوا يكتبون عنه ، وعدم المعاصرة هذا يمتد فيما يخص الحديث عن بعض اخبار العرب واحوالهم ، عبر سبعة عشر قرنا » (٢٥) . كما يجد تسويفا آخر يرتبط حكما بالاول ، هو ان المؤرخين العرب كانوا يوغلون بعيدا في الماضي قبل الانتقال الى تدوين الاحداث المستقرة في الاسلام ، وهذا يدفعهم الى « عهود اقل ما توصف به ، ان من يتناولها لا يعرف في الحقيقة شيئا عنها » (٢٦) . ثم ينتقد اسلوب القصص الشعبي الذي يسود هذه الكتابات ، حيث كان الهدف منه مسامرة الملوك والامراء ، مما يؤدي بالاخباري الى اختراع بعض المواقف الخيالية ، لاضفاء جو من الفرح على المجلس . مستشهدا بالاخباري عبيد بن شريه ، الذي كان يجالس معاوية بن ابي سفيان ويروي له قصص الاقدمين من الحكام . وتبقى الملاحظة الاخيرة على هذه الكتابات ، انها ليست دقيقة حتى في الاخبار المنقولة ، وذلك لتجاهلها - ماعدا استثناءات قليلة - المصادر التي استقت منها اخبارها ، على عكس ما اعتمدته المؤرخون الاقدمون من الاغريق وغيرهم .

ولكن الدكتور عبد الوهاب في بحثه ، لا يرفض كل هذه الكتابات وبخاصة ما جاء في بعض الكتب المتخصصة ، كالانصام لابن الكلبي والاكيل للهمداني (٢٧) . وكذلك صفة جزيرة العرب للهمداني ، وهو كما واضح من اسمه كتاب وصفي لجغرافية هذه البلاد في الوقت المعاصر لمؤلفه . ولقد كان لهذا الاخير دوره البارز في التعرف الى عدد من المواقع الاثرية في شبه الجزيرة او التمهيد لاكتشافها من خلال المقارنة مع المصادر الكلاسيكية .

والحقيقة ان الكاتب في ابتعاده عن الكتابات العربية القديمة ، لا يثير موضوعية هذه المصادر الا من طرف المعلومات ، المتعلقة بتاريخ المرحلة السابقة على الاسلام . ولا شك ان ثقافته اليونانية الواسعة ، تاريخا وفلسفة وحضارة ، وذلك عبر تجربة طويلة من الدراسة والبحث ، كانت دافعه الرئيسي لقراءة التاريخ العربي القديم ، قراءة مختلفة فيها من الموضوعية ما لا ينسجم كثيرا ومعظم الروايات العربية الساذجة ، واحيانا الخرافية . ولقد جاء بحثه المكثف ، بمصادره الوثائقية والعلمية الدقيقة ، وبطروحاته الموضوعية الجديدة ، وكذلك بمقارناته التحليلية الرصينة ، انجازا على مستوى من الاهمية في نطاق الكتابة الحضارية . ومن الواضح ان الجهد الذي صرفه الكاتب كما هو ظاهر في هذا البحث ، وتزويده بعدد وافر من الحواشي والخرائط والصور ، كان جهدا غير عادي ، وبالتالي فان كتابا كهذا لا بد ان يتخطى الاطار التقليدي للكتابات التاريخية المرتبطة بهذه المرحلة المهمة من تاريخ العرب الحضاري .

اما الاسلوب الذي غلب على الكتاب ، موضوع دراستنا - فهو متأثر بمضمونه الى حد كبير . ولعلها خاصة متميزة ان يكتب بلغة علمية صعبة ، قد لا يستسيغها القارئ غير المتخصص ، الذي تجتذبه عادة العبارة السهلة والكلمة الانيقة . ولا اقصد هنا التقليل من قدرات الكاتب ، فهو معروف بامتلاكه ناصية هذه اللغة ، ولكن جملته محبوكة بشدة ومضغوطة حتى الصلابة . ويكاد يتعاطى مع هذا الاسلوب كمن نشأ على تربية من الثقافة خاصة .. من الدراسة الى التخصص ... الى الشعر .

وتبقى آخر الكلمات ، ان تاريخ « العرب في العصور القديمة - مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الاسلام » يحتوي بين صفحاته ، الكثير من المحطات البارزة ، حيث يمكن للناقد ان يتوقف عندها طويلا ويستكشف الايجابيات ومواقع الجدة ، وآثار الجهد الدؤوب .. ولكنني اخترت من العنقود بعض حبات ليس اكثر .

ان كتابا مميزا دخل مكتبة التاريخ العربي القديم ، ومعه رؤيته الجديدة التي عبر بها الدكتور لطفي عبد الوهاب ، من دائرة المؤرخ الاخباري الذي لا يرفض الخرافة ، الى دائرة المؤرخ الحضاري المتبع باهتمام وشغف للمصادر الوثائقية والدلالات المنطقية المقبولة .

الهوامش

- (١) قام (ارنو) برحلة من صنعاء الى مأرب في تموز ، يوليو، ١٨٤٣ ، وتعرف الى بقايا سد مأرب الشهير . وانتهى الى وضع دراسة قيمة لـ ٥٦ نقشا جمعها من مأرب وصرواح (العاصمة السبئية القديمة) فضلا عن صنعاء . راجع : ص ١٢٦ . د. عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٤٦ .
- (٢) تاريخ العرب في العصور القديمة ص ١٢٧ . قام العالم المصري سليمان حزين برحلة الى اليمن على رأس بعثة من جامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ .
- (٣) د. عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص ٥٢ .
- (٤) د. احمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ٢١٧ وما بعدها .
- (٥) راجع الكتاب ص ٦٧ - ٦٨ .
- (٦) العرب في العصور القديمة : ص ٧٥ .
- (٧) د. احمد الحوفي : الطبري ، ص ٢٢٠ - ٢٢٥ .
- (٨) العرب في العصور القديمة : ص ٢١٧ .
- (٩) راجع الكتاب ص ١٢٢ .
- (١٠) نفسه ص ١٢٨ - ١٢٩ .
- (١١) راجع الكتاب ص ١٤٩ .
- (١٢) المصدر نفسه ص ١٥٩ .
- (١٣) المصدر نفسه .
- (١٤) المصدر نفسه ١٦٠ .
- (١٥) المصدر نفسه .
- (١٦) الايات ١٩ - ٤٤ .
- (١٧) راجع الكتاب ، ص ١٧٠ .
- (١٨) الايات ، ص ١٤ - ٢١ .
- (١٩) راجع الكتاب ، ص ١٧٠ .
- (٢٠) د. احمد طربين : قضية فلسطين ، الجزء الاول ، ص ١٨ .

-
- (٢١) راجع الكتاب ، ص ١٩٩ .
 - (٢٢) راجع الكتاب ، ص ٢٠٠ .
 - (٢٣) راجع الكتاب ، ص ٢٠١ .
 - (٢٤) راجع الكتاب ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ .
 - (٢٥) دامت هذه المرحلة نحواً من ثلاثة قرون .
 - (٢٦) راجع الكتاب ، ص ٢٠٤ .
 - (٢٧) راجع الكتاب ، ص ٢٠٦ .
 - (٢٨) راجع الكتاب ، ص ٢٠٨ .
 - (٢٩) راجع الكتاب ، ص ٢٠٩ .
 - (٣٠) راجع الكتاب ، ص ٢١١ .
 - (٣١) راجع الكتاب ، ص ٢١٢ .
 - (٣٢) راجع الكتاب ، ص ٢٢٣ - ٢١٤ .
 - (٣٣) راجع الكتاب ص ٢١٤ .
 - (٣٤) راجع الكتاب ص ٢١٤ .
 - (٣٥) راجع الكتاب ، ص ٢١٦ .
 - (٣٦) راجع الكتاب ، ص ٢١٧ .
 - (٣٧) يحتوي هذا الكتاب على اخبار مفصلة عن اثار اليمن من قصور ومدن وسدود وحصون وغيرها .